

الوافي في الوفيات

وحجّ ستّ مرات . وَكَانَ يُعْرَفُ عِنْدَ الْمَكِّيِّينَ بِالسُّتُورِيِّ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَارَ بِكِسْوَةِ
الْبَيْعِ بَعْدَ أَخْذِ بَغْدَادِ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَقَبْلَ ذَلِكَ كَانَتْ تَأْتِيهَا الْأَسْبِتَارُ مِنَ
الْخَلِيفَةِ . وَحَجَّ مَرَّةً هُوَ وَاثْنَانِ مِنَ مِصْرَ عِلَاىِ الْهَجْنِ . وَكَانَ مِنَ الْأَمْرَاءِ فِي أَيَّامِ
الظَّاهِرِ ثُمَّ أُعْطِيَ أَمْرِيَّةً بِحَلَبِ ثُمَّ قَدِمَ دِمَشْقَ وَوَلِيَ الشَّدَّ مَدَّةً ثُمَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ سِنْقَرِ
الْأَشْقَرِ ثُمَّ أَمْسَكَ ثُمَّ أُعِيدَ إِلَى رَتْبَتِهِ وَأَكْثَرَ وَأُعْطِيَ خِزَانَةً وَتَقَدَّمَ عِلَاىِ أَلْفٍ وَتَنَقَّلَتْ
بِهِ الْأَحْوَالُ وَعَلَتْ رَتْبَتَهُ فِي دَوْلَةِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ حَسَامِ الدِّينِ لِاجِينِ وَقَدَّمَ مَعَهُ عِلَاىِ الْجَيْشِ
فِي غَزْوَةِ سَيْسِ . وَكَانَ لَطِيفًا مَعَ أَهْلِ الصَّلَاحِ وَالْحَدِيثِ يَتَوَاضَعُ لَهُمْ وَيَحَادِثُهُمْ وَيُؤَانِسُهُمْ
وَيُصَلِّهِمْ . وَكَانَ مَعْرُوفًا كَبِيرًا وَأَوْقَاتًا بِالْقُدْسِ وَدِمَشْقَ . وَكَانَ مَجْلِسُهُ عَامِرًا بِلِعُلَمَاءِ
وَالشُّعْرَاءِ وَالْأَعْيَانِ وَسَمِعَ الْكَثِيرَ بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ رَوَى عَنِ الزُّكِّيِّ عَبْدِ الْعَظِيمِ وَالرُّشَيْدِ
الْعَطَّارِ وَالْكَمَالِ الضَّرِيرِ وَابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ وَالشَّرْفِ الْمَرْسِيِّ وَعَبْدِ الْغَنِيِّ بْنِ بَنِينَ وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ
بِشَارَةَ وَأَحْمَدَ بْنَ حَامِدِ الْأَرْتَاخِيِّ وَإِسْمَاعِيلَ بْنَ عَزُّونَ وَسَعْدَ بْنِ أَبِي الْفَضْلِ التَّنُذُوحِيِّ وَعَبْدَ
ابْنِ يَوْسُفَ بْنِ اللَّطْمِ . وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ يَوْسُفَ الْمَنْبِجِيِّ وَلاحِقَ الْأَرْتَاخِيِّ وَأَبِي بَكْرَ بْنَ مَكَارِمَ
وَفَاطِمَةَ بِنْتَ الْمَلْثَمِ بِالْقَاهِرَةِ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ الْحَزَّامِ الْحَمِيرِيَّةَ بِمَكَّةَ وَابْنَ عَبْدِ الدَّائِمِ وَطَائِفَةَ
بِدِمَشْقَ وَهَبَةَ ابْنَةَ بَنِ زَوَيْنَ وَأَحْمَدَ بْنَ النَّحَّاسِ بِالسُّكَنْدَرِيَّةِ وَعَبْدَ ابْنِ عَلِيٍّ بْنِ مَعْرُوزِ بِنِيَّةِ بَنِي
خَصِيبِ وَبِأَنْطَاكِيَّةِ وَحَلَبَ وَبَعْلَبَكَ وَالْقُدْسَ وَقُوصَ وَالكَرْكَ وَصَفَدَ وَحَمَاةَ وَحَمَصَ وَيَنْبَعَ وَطَيْبَةَ وَالْفَيْصُومَ
وَجَدَّةَ وَقُلَّةَ مِنْ أَنْجَبِ مِنَ التُّرْكِ مِثْلَهُ . وَسَمِعَ مِنْهُ خَلْقَ بَدِمَشْقَ وَالْقَاهِرَةَ وَشَهِدَ الْوَقْعَةَ وَهُوَ ضَعِيفٌ
ثُمَّ التَّجَأَ بِأَصْحَابِهِ إِلَى حِصْنِ الْأَكْرَادِ فَتُوفِيذَ بِهِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ ثَالِثَ شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ تَأْرِيخِ
تَقَدَّمَ انْتَهَى مَا تَرَجَّمَ لَهُ بِهِ الشَّيْخِ شَمْسِ الدِّينِ . قُلْتُ : وَكَانَ الشَّيْخُ فَتَحَ الدِّينَ بِهِ
خَصِيمًا يَنَامُ عِنْدَهُ وَيَسَامِرُهُ فَقَالَ لِي : كَانَ الْأَمِيرُ عِلْمَ الدِّينِ قَدَّ لَبَسَ بِالْفَقِيرِيِّ وَتَجَرَّدَ
وَجَاوَرَ بِمَكَّةَ وَكَتَبَ الطَّبَاقَ بِخَطِّهِ وَكَانَتْ فِي وَجْهِهِ أَثَارُ الضَّرْبِ مِنَ الْحُرُوبِ وَكَانَ إِذَا
خَرَجَ إِلَى غَزْوَةٍ خَرَجَ طَلْبُهُ وَهُوَ فِيهِ وَإِلَى جَانِبِهِ شَخْصٌ يَقْرَأُ عِلَايَهُ جَزَاءً فِيهِ أَحَادِيثُ
الْجِهَادِ وَقَالَ إِنَّ السُّلْطَانَ حَسَامَ الدِّينِ لِاجِينِ رَتَّبَهُ فِي شَدَّ عِمَارَةَ جَامِعِ ابْنِ طَوْلُونِ وَفَوْضَ
أَمْرَهُ إِلَيْهِ فَعَمَّرَهُ وَقَوَّفَهُ وَقَرَّرَ فِيهِ دُرُوسَ الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ وَالطَّبِّ وَجَعَلَ مِنْ جَمَلَةِ
ذَلِكَ وَقَفًا يَخْتَصُّ بِالدِّيَكَةِ الَّتِي تَكُونُ فِي سَطْحِ الْجَامِعِ فِي مَكَانٍ مَخْصُوصٍ بِهَا وَزَعَمَ أَنَّ
الدِّيَكَةَ تُعِينُ الْمَوْتِينَ وَتُوقِظُ الْمَوْتِينَ فِي السَّحْرِ وَضَمَّنَ ذَلِكَ كِتَابَ الْوَقْفِ فَلَمَّا قُرِئَ
عِلَاىِ السُّلْطَانَ أُعْجِبَهُ مَا اعْتَمَدَهُ فِي ذَلِكَ فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى ذِكْرِ الدِّيَكَةِ أَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَالَ
: أَبْطَلُوا هَذَا لَا يَضْحَكُ النَّاسُ عَلَيْنَا ! .

وَكَانَ سببَ اخْتِصَاصِ فَتْحِ الدِّينِ بِهِ أَنْهُ سَأَلَ الشَّيْخَ شَرْفَ الدِّينِ الدِّمِشْقِيَّ عَنْ وَفَاةِ
البخاري فما استحضر تأريخها ثُمَّ إِنَّهُ فَتَحَ الدِّينَ عَنِ ذَلِكَ فَأَجَابَهُ فَحَظِي عِنْدَهُ وَقَرَّبَهُ
فَقِيلَ لَهُ : إِنَّ هَذَا تَلْمِيزُ الشَّيْخِ شَرْفِ الدِّينِ فَقَالَ : وَلِيَكُنْ وَغَالِبَ رُؤَسَاءِ دِمَشْقِ
وَكِبَارِهَا وَعِلْمَائِهَا نَشِؤُهُ وَجَمَعَ الشَّيْخُ كَمَالَ الدِّينِ ابْنَ الزَّمْلَكَانِي مَدَائِحَهُ فِي مَجْلَدَيْنِ أَوْ
وَاحِدَةٍ وَكَتَبَ ذَلِكَ بِخَطِّهِ وَكَتَبَ إِلَيْهِ عِلَاءُ الدِّينِ الْوُدَاعِي يَعِزُّ بِهِ بَوْلَدِ تَوْفِيٍّ اسْمُهُ عَمْرٌ وَمِنْ
خَطِّهِ نَقَلْتُ مِنَ الْكَامِلِ : .

قُلُّ لِلْأَمِيرِ وَعَزَّزَّهُ فِي نَجْوَاهِ ... عُمَرَ الَّذِي أَجْرَى الدَّمْعَ أُجَاجًا .
حَاشَاكَ يُظْلَمُ رِبْعٌ صَبْرُكَ بَعْدَ مِنْ ... أَمْسَى لِسَكَّانِ الْجَنَانِ سَرَاجًا .
وَقَالَ فِيهِ أَيْضًا وَمِنْ خَطِّهِ نَقَلْتُ مِنَ الْخَفِيفِ : .
عَلِمُ الدِّينَ لَمْ يَنْزَلْ فِي طِلَابِ الْ... عِلْمِ وَالزُّهُدِ سَائِحًا رَحَالًا .
فَتَرَى النَّاسَ بَيِّنَ رَاوٍ وَرَاءِ ... عِنْدَهُ الْأَرْبَعِينَ وَالْأَبْدَالَ .
وَقَالَ فِيهِ لَمَّا أَخَذَ فِي دَوِيرَةِ الشَّمِشَاطِيِّ بَيْتًا مِنَ الْكَامِلِ : .
لِدُوبَرِهِ الشَّيْخَ الشَّمِشَاطِيَّ مِنْ ... دُونَ الْبِقَاعِ فَضِيلَةٌ لَا تُجْهَلُ .
هِيَ مَوْطِنٌ لِلْأَوْلِيَاءِ وَنُزْهَةٌ ... فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا لِمَنْ يَتَأَمَّلُ .
كَمُلْتُ مَعَانِي فَضَّلْتُهَا مُذْ حَلَّهَا الْ... عِلَامُ الْفَرِيدِ الْقَانِتِ الْمَتَبِّتِ .
إِنِّي لِأُنْشِدُ كَلِمًا شَاهَدْتُهَا ... مَا مِثْلَ مَنْزِلَةِ الدَّوِيرَةِ مَنْزِلُ